الفصل الثانى

العصر الجاهلى

وصف الطبيعة الميتة

الأطلال ــ الصحراء ــ الليل ــ السحاب والمطر

قامت حياة العربى على الرحلة والانتقال سعياً وراء الكلأ وبحثاً عن الماء، يقيم حيث يرى الرزق ، فيحل بخيمته وينصب أثافيه ويوقد النار ويعيش حتى ينضب هذا المورد فينتقل إلى غيره، ويعيش بذلك فى مساس مع الطبيعة وتجاور مستمر ، يرعى النجوم فى أفلاكها، وينظر إلى السماء وكواكبها، ويراقب السحب والغيوم والرعد والبرق ، يعبر الصحراء ويمر بالوهاد والتلول والنجاد والسواق والمياه ، فهو فى صلة مع هذه الظواهر لا تنقطع ، تقع عليها عيناه فى الصباح والظهيرة والمساء والليل كأنه راصد فلكى أو جغرافى باحث ! . .

وليس غريباً أن يقع على آثار من حل قبله أو يمر بالأماكن التى نزل بها غيره، فيرى الأطلال والديار والدمن والأوطان بين نازح يرتحل ومنيخ يحط رحله، فتتنازع الشاعر عواطف غريبة لهذه الصحراء والبادية والخباء والخيام، ويرى فيها موضوعات مختلفة، تحدثه الأحجار عن حب سلف أو معركة نشبت أو قوم لهوا أو غارات وقعت ، فينطلق لسانه بما يلفه من مكان أو يطوف برأسه من حوادث الزمان ، فيرسم الطبيعة ويصور ما تقلب عليها من حب وحرب وطعن وضرب وصيد وقنص .

وقد وصلت إلينا فى الشعر الجاهلى أوصاف الأطلال والليل والسحاب والبرق والغيث والصحراء سنعرض لها فى إيجاز كذلك، لنتبين أين مكان القوم من هذه الصناعة أو هذا الفن .

الأطلال

عرض امرؤ القيس فى معلقته إلى هذه الأطلال فوصف رسوم الديار وقد تقلبت عليها الرياح السافيات ، ورسم بعر الآرام تملأ العرصات صغيرة كحب الفلفل، فبكى لرحيل القوم وزفر فى أسى ، ولكن الدموع لا ترد الأحبة والأسى لا يقرب البعيد .

وعرض زهير بن أبى سلمى إليها كذلك فرآها قد امحت ودرست ، وصارت بعد أن هبت الريح وجرى السيل كبقية الوشم فى عروق المعصم ، وقد أصبحت هذه الأطلال موطناً للآرام ومرتعاً لبقر الوحش ينتقلن فيها من مكان إلى مكان ، ولم يبق من أثر الحبيبة وأهلها إلا هذه الأحجار السوداء وقد تقلبت عليها النار فاختلطت حمرتها بالسواد ، فأين دارها بعد عشرين عاماً ، وأين كانت تميس وتختال ! لقد حملت الريح كل شىء ولم يبق فى ذاكرة زهير إلا صورتها البعيدة تعيش فى خياله .

وأما لبيد بن ربيعة فقد وصف الأطلال كزميليه ، فرأى أن حججاً كثيرة تقلبت عليها فأصبحت مرعى الظباء والنعام والبقر الوحشى ، وغدت مرتع الأوابد بعد أن كانت موطن الجمال والحب والفتنة ، وقد تعاقبت الرياح والسيول على هذه الأطلال فكشفت عن آثارها القديمة، فغدت كأنها كتب تقادم عهد كتابتها فجدد الكاتب سطورها ، أو كأنها وشم ذهب أثره فى اليد فأعادت المرأة شكله بالكحل تذره عليه . وما بدت هذه الديار واضحة المعالم حتى وقف الشاعر يتخيل الأحبة وقد عادوا مع الربوع واستوطنوا بعد غيبة ، فناجاهم وساءل الرسوم

عنهم ، ولكن لا جواب ولا حديث ، وإنما الوجد والهوى يخيل معهما للعاقل ما لم يقع ، فكأن اللب قد سلب أو كأن العقل قد شرد .

والنابغة الذبيانى ، نظر إلى الأطلال فتصور مجالس الحيوان ومعالفه والخادم ، قد خلت السبيل للماء المنهمر يغمر الدار ويبلغ إلى الأثاث ، فقد خلت من أصحابها وأخنى عليها الدهر .

والمرقش الأكبر ، رأى الدار خالية مقفرة ، احتمل أهلها ليلاً لأنهن منعمات لا يحتملن سفر النهار ، فالشمس شديدة على أجسادهن المترفة ، فعمر الوحش المكان وسكنته البقر ترعى العشب وتمرع فى الأرض كأنها رجال من العجم يختالون فى قلانسهم

والحارث بن حلزة اليشكرى ، أرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية من أوانسها الفاتنات ، قد عمرتها قطعان البقر الوحشى بيضاء الظهور تبدو كأشعة الشمس فى سطوعها ، وسكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها .

وثعلبة بن عمرو العبدى ، مغمور فى الشعراء ، ولكنه ترك وصفاً رائعاً للديار الخالية ، يتلخص فى أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الأرض تشبه فعل الأصباغ فى زخارف البيوت ، أو تشبه رسم الكاتب يخلف رسوماً دقيقة وأشكالاً منمقة بدواته ، وهو يرفع يده ويضعها فى هدوء وسكون لا تطرف عينه ولا يتحرك جفنه ، كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتحبير . وهذه صورة موفقة لم يقع عليها الشعراء المشهورون .

وخلاصة القول فى هؤلاء الوصافين أنهم اتفقوا فى رحيل القطان عن الأوطان ، واتفقوا فى الحيوان الذى حل بالمكان ، ولكنهم اختلفوا فى رسم الأرض وقد تناوبت عليها الرياح والأمطار ، فأصبحت فى نظر بعضهم كباقى ظاهر الوشم فى اليد أو اختلاط الأصباغ بالأصباغ على يد فنان رسام أو كاتب ملهم ، وكلهم

ذكر حياة الأحبة قبل الرحيل فتصور النعيم والترف ، وتصور الأثاث ومراكض الحب ومرابع الحب .

الصحراء

رأى الأعشى أن الصحراء أشبه بظهر الترس فى استوائها ، وأنها مقفرة موحشة فما يسكنها إلا الجن يمرحون فيها ويصخبون خلال الليل حين يلف السكون عالم الصحراء ويخيم الظلام ، فهى وطنهم ومرتعهم ومحل عبثهم ودنياهم . فإذا أشرق النهار وعمت الشمس بعد ذلك أرجاء الكون اشتد القيظ والهجير فما يطيقه إلا الفرسان الشجعان والأبطال الغطاريف ، فهم يقطعون الصحراء ويقتحمون الأهوال والمخاطر .

والمرقش الأكبر يصفها سوداء لبعد عهدها بالنبات وحرمانها من الماء، فالإبل تسير فى ضنك وإرهاق متعبة مكدودة ، والعابرون يصيبهم النعاس لخمود الطبيعة وسكونها وشدة ما يكتنفها من ظلام .

وسويد بن أبى كاهل ، يصف الفلاة كأنها رأس أصلع فيه بقايا من الشعر ، ويرسم السراب يسبح فى البيداء ويرقص على الجبال فهى مخوفة هائلة .

الليل

تخيل امرؤ القيس أن الليل حين يرخى ستائره على الكون شبيه بالبحر حين يغمر السابحين ، وأن نجومه المتلألئة كأنها مربوطة بأمراس شديدة الفتل إلى رأس جبل لا تريم ولا تتحرك، ثابتة، ثقيلة الوطء على الساهر المحزون . والشاعر يجد فى الليل موضعاً للفخر ، كأن الليل يبلو قوته وشجاعته .

والنابغة الذبيانى ، يحسب الليل أبدياً لبطئه وطوله ، كأنه مقيم لا يرتحل ، أو كأن الراعى الذى يسوق النجوم إلى غايتها قد نسى قطيعه وسافر فما يعود !.

ومهلهل بن ربيعة ، أصابه الهم فطال سهره ، وجفاه النوم ، فكأن النجوم واقفة ، أو كأن كوكب الجوزاء كنياق تجمعت حول وليدها وفصيلها المكسور فلا تبرح مكانها ، أو كأن الفرقدين يدا رجل مقامر بغيض لا تقفان عن الحركة حول القمار ولا تتجاوزانه .

وهؤلاء الشعراء اتفقوا فى أن النجوم ثابتة بطيئة أبدية لا تتحرك ، ولكن أحدهم شبهها مربوطة بالحبل ، وآخر جعلها كالقطيع نسيه صاحبه ، والثالث شبهها بالنياق المتجمعة النائحة أو المقامر المأخوذ باللعب .

السحاب والمطر

ويرى امرؤ القيس أن المطر حين ينسكب يملأ الأرض ويغمرها فيخفى أوتاد الخيم ويغطى الأشجار فما تبدو منها إلا رءوسها يعلوها الزبد ، فيخيل إلى الرائى أنها رءوس مفصولة عن أعناقها تسبح فى الماء . ووصف الأعشى البرق يلتمع ثم يخبو ، فرأى أنه كشعلة تومض وتنطفئ أو شرارة تبدو وتختفى ، والسحاب العارض ظلمات متراكمة تسح وتنسكب فتملأ المياه كل مكان، وتجاوز الحد فتبلغ الأمكنة العالية والكثبان المنتشرة .

وأما عبيد بن الأبرص ، فيرى أن البرق يضىء كالصبح فى لمعانه ، وأن السحاب يدنو من الأرض حتى ليحسب الأنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبــه   فى عارض كمضىء الصبح لماح [1]
دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يمسكه من قــام بالراح [2]

وليس فى هذه الصور للسحاب والمطر كبير غناء إذا استثنينا وصف امرئ القيس

(١) العارض : السحاب الذى يعترض فى الأفق — لماح : لماع .
(٢) دان : قريب — مسف : مار على وجه الأرض — هيدبه : خيوطه — الراح : الكف .

للرءوس المفصولة ، فكلها تشير إلى هذا السيل المتدفق الذى يغمر الأرض ويملأ الأمكنة . وقد وصف الجاهليون ما يصيبهم من برد أو حر ، ورسموا أثر الأمطار فى الرياض حتى يضحك الزهر ويينع الثمر ويفوح العطر ويغرد الذباب ، وعنترة العبسى يشبه الذباب بالشارب الثمل حين يتغنى فى سروره ومرحه .

وخلاصة القول فى شعر الوصف عند الجاهليين أنه قائم يصور حياتهم الحزينة ورسومهم الكئيبة وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوابد والوحوش ، وحين تصيبهم الأمطار تكسب السماء عبوساً والبيوت اضطراباً . وذلك لاضطراب عيشهم وشدة تنقلهم وضربهم فى أطراف الأرض وراء الرزق ، فلا قرار ولا هدوء كأنهم يكتوون بالشمس ويرزءون بالرمل والأنواء فتغدو حياتهم كالجحيم ، ولذلك كانوا يحلمون بالنعيم وبالجنان ، وبالهدوء والشراب السائغ والوسائد الناعمة ونوم الضحى ، ويرون فيها مثلاً أعلى لآمالهم .